بحث جامعي – ابن زيدون الشاعر –

ابن زيدون الشاعر

المبحث الأول: حياته وثناء العلماء عليه

المطلب الأول: اسمه ونسبه[1]

هو أبو الوليد، أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن غالب بن زيدون المخزومي، القرشي، الاندلسي، القرطبي، الشاعر ولد بقرطبة سنة 394 وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وبرع أدبه، انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس، فكان السفير بينه وبين ملوك الأندلس فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب واتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية وذلك في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فولاّه وزارته، وفوض إليه أمر مملكته فأقام مبجّلاً مقرباً ، وجعله من خواصه: يجالسه في خلواته، ويركن إلى إشاراته. وكان معه في صورة وزير. وذكر له شيئاً كثيراً من الرسائل والنظم.

قال صاحب المطرب: وكان ابن زيدون زعيم الوزراء القرطبية، ونشأة دولتها السنية؛ حتى صار ملهج لسانها، وحل من عينها مكان إنسانها. وكان بينه وبين رئيسها الحسيب أبي الحزم ابن جهور ائتلاف الفرقدين، واتصال الأذن بالعين؛ فلما صار تدبير ملك قرطبة إليه، ومدار أمرها عليه؛ طلب ابن زيدون طلباً أصاره إلى الاعتقال؛ وقصره عن الوخد والإرقال؛ وكان له فيه أمداح بهرت بنظامها، وظهرت كالبدور عند تمامها. فكتب إليه:

بَني جَهورٍ انتُمْ سماءُ رياسةٍ ... مَنَاقبكم في أفْقها انجمٌ زُهْرُ

طريقتكُم مُثْلَى وهديُكُم رِضاً ... ومَذهبُكم قَصْدٌ ونالمكم غَمْر

عطاءٌ ولا مَنٌ وحُكْمٌ ولا هَوىً ... وحِلْم ولا عَجز وعزّ ولا كبْرُ

وقال في أبي الحزم بن جهور حين حبسه:

---

[1] جذوة المقتبس: 130 – 131، قلائد العقيان: 79، الذخيرة 1 / 1 / 336 – 428، الخريدة 2 / 48 – 71، بغية الملتمس: 186 – 187، المطرب: 164، المعجب: 74، إعتاب الكتاب: 207، المغرب في حلي المغرب 1 / 63 – 69، وفيات الاعيان 1 / 139 – 141، المختصر في أخبار البشر 2 / 187، العبر 3 / 253، تتمة المختصر 1 / 563 – 564، الوافي 7 / 87 – 94، مرآة الجنان 3 / 14 – 15، البداية والنهاية 12 / 104 – 105، النجوم الزاهرة 5 / 88، نفح الطيب 1 / 627 وغيرها وانظر الفهرس، كشف الظنون: 278، 841، شذرات الذهب 3 / 312 – 313، إيضاح المكنون 1 / 485، دائرة المعارف الاسلامية 1 / 186، كنوز الاجداد: 251 – 260،

بني جَهورٍ أحرقْتُم بجفائكم ... ضمِيري فما بالُ المِدائح تَعْبَقُ

تعدّونني كالعَنْبِر الوَرْد إنما ... تَطيب لكم أنفاسُه حين يُحْرَق

ثم كتب إليه:

قُل للوزير وقد قَطعتُ بمَدْحه ... عُمري فكان السِّجن منه ثَوابي

لم تَعْدُ في أمري الصّوابَ مُوفَّقاً ... هذا جزاء الشَّاعِرِ الكذَّابِ

ثم إنه أعمل لنفسه في الخلاص من سجنه حيلا، واتخذ الليل للهرب جملا. فقطع في ليلة واحدة ما بين قرطبة وإشبيلية من المفاوز والمراحل، ومسافتها ثلاثة أيام لو أخذت الرواحل. ولما اتصل خبر وصوله بأبي عمرو عباد، وهو يومئذ سلطان تلك البلاد؛ تلقاه في جماعة من جماهير الكماة، ومشاهير العلماء والقضاة؛ فألقى مقاليد وزارته وجميع أمور دولته إليه، وأفاض الحلع والسوابغ عليه

المطلب الثاني: ثناء العلماء عليه

قال عنه الذهبي: الوزير، العلامة، ، حامل لواء الشعر في عصره.

قال ابن بسام: كان غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جر الايام جرا، وفاق الانام طرا، وصرف السلطان نفعا وضرا، ووسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ما للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم ولا للنجوم الزهر اقترانه وخط من النثر غريب المباني شعري الألفاظ والمعاني وكنا من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع أدبه وجاد شعره وعلا شأنه وأنطلق لسانه].

قال عنه الحميدي: [شاعر مقدم، وبليغ مجود، كثير الشعر، قبيح الهجاء؛ أدركنا زمانه]

قال فيه ابن سعيد: [و في المغاربة من تُبْعَثُ من أشعاره أسحار الكلام ويتم عليها أسرار الغرام، مثل الوزير أبي الوليد بن زيدون في قصيدته التي منها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا]

وقال صاحب المعجب: [ابن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيرا وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أناف على امرئ القيسُ]

المبحث الثاني: آثاره ووقاته

المطلب الأول: آثاره ومؤلفاته

من مؤلفاته ديوان شعر، ورسالة عرفت برسالة ابن زيدون.

ومن آثاره غير الديوان رسالة في التهكم بعث بها عن لسان ولاّدة إلى ابن عبدوس وكان يزاحمه على حبها، وهي ولاّدة بنت المستكفي.

وله رسالة أخرى وجهها إلى ابن جهور طبعت مع سيرة حياته في كوبنهاغن وطبع في مصر من شروحها الدر المخزون وإظهار السر المكنون.

المطلب الثاني: وفاته

وكانت وفاته رحمه الله في صدر رجب سنة ثلاث وستين وأربعمائة بمدينة إشبيلية، رحمه الله تعالى، ودفن بها[2].

المبحث الثالث: نماذج من شعره

المطلب الأول: أوائل شعره

لقد كان شاعرنا ابن زيدون نبيها فطنا منذ صباه مولعا بالأدب والشعر منذ نعومة أظفاره، هذا ما تؤكده كتب التاريخ والأدب حيث نقلت بعض شعره الذي قاله في صباه، ومن ذلك قول المراكشي[3]: [ومن شعره – رحمه الله – مما قاله في مدة صباه:

أخذت ثلث الهوى غصباً ولي ثلث ... وللمحبين فيما بينهم ثلث

تالله لو حلف العشاق أنهمو ... موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا

قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتوا فإن عاد من يهوونه بعثوا

ترى المحبين صرعى في عراصهم ... كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا

وفي هذه القطعة من الشعر ما يدل على أن ابن زيدون ميال إلى الغزل و التشبيب حتى وهو في بداياته الشعرية.

المطلب الثاني: غرض الغزل والتشبيب

قال المراكشي: ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافاً قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

---

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان 139/1

[3] المعجب في تلخيص أخبار المغرب

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ حصرنا غصون الأنس دانية ... قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عاد يبكينا!
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغص فقال الدهر: آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد ... بنا ولا أن تسروا كاشحاً فينا
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظاً من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا؟
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به ...من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عيني تذكرني ... إلفاً تذكره أمسى يعنينا؟
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حياً كان يحيينا
من لا يرى الدهر يقضينا مساعفة ... فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا
وبيت ملك كأن الله أنشأه ... مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه ... من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهية ... تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً ... وفي المودة كان من تكافينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إذ طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

يا روضة طال ما أجنت لواحظنا ... ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا

ويا حياة تملأنا بزهرتها ... منى ضروباً ولذات أفانينـا

ويا نعيماً حضرنا من غضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيلها حينا

لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة ... فقدرك المعتلي عن ذلك يغنينا

إذ انفردت فما شوركت في صفة ... فحسبك الوصف إيضاحاً وتبيينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت .. عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم يخف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا

ولا اختياراً تجنبناك عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فيها الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤوس الراح تبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

دومي على العهد ما دمنا محافظة ... فالحر من دان إنصافاً كما دينا

فما ابتغينا خليلاً منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا

ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة ... فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا

وفي الجواب قناع لو شفعت به ... بيض الأيادي التي ما زلت تولينا

عليك مني سلام الله ما بقيت ... صبابة منك تخفيها فتخفينا

وهذه القصيدة الرائعة هي أطول من ذلك و أزيد ولهذا قال المراكشي حين أوردها: [أوردتها على الاختيار لا على النسق ولعل في كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت وإنما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص].

وأورد ابن سعيد المغربي[4] قصيدة أخرى لابن زيدون يخاطب بها محبوبته، فقال: "قال الوزير أبو الوليد بن زيدون في شعره الذي خاطب به محبوبته ولادة

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ** والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله ** كأنما رق لي فاعتل إشفاقا

والروض عن مائة الفضى مبتسم ** كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات انصرفت ** بتنا لها حين نام الدهر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر ** جال الندى حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي ** بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ورد تألق في ضاحي منابته ** فازداد الضحى في العين إشراقا

كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ** إليك لم يعد عنه الصبر أن ضاقا

لو كان وفي المنى في جمعنا بكم ** لكان من أكرم الأيام أخلاقا

آس ينافحه نيلوفر عبق ** وسنان نبه منه الصبح احداقا

لا سكن الله قلبا عن ذكركم ** فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

لو شاء حملى نسيم الريح نحوكم ** وافاكم بفتى أضناه ما لاقى

كان التجاري بمحض الود مذ زمن ** ميدان انس جرينا فيه إطلاقا

فالآن احمد ما كنا لعهدكم ** سلوتم وبقينا نحن عشاقا

و قد ذكر الجرّاوي في الحماسة المغربية بعضا من شعر ابن زيدون في الغزل، ومنه قوله:

أما رضاكِ فعلقٌ مالهُ ثمنٌ ... لو كان سامحني في وصلهِ الزمنُ

تبكي فراقك عينٌ أنتِ ناظرها ... قد لجَّ في هجرها عن هجركِ الوسنُ إن الزَّمان الَّذي عهدي به حسنٌ .قد حال مذ غابَ عنَّي وجهك الحسنُ

أنتِ الحياة فإن يقدر فراقكِ لي ... فليحفرِ القبرُ أو فليحضرِ الكفنُ

والله ما ساءني أني خفيت ضنىً ... بل ساءني أن سرِّي بالضَّنى علنُ

لو كان أمري في كتم الهوى بيدي ... ما كان يعلمُ ما في قلبي البدنُ

وقال أيضاً:

أغائبةً عني وحاضرةً معي ... أناديكِ لما عيل صبري فاسمعي

[4] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب،180/1، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، 1955

أفي الحقِّ أن أشقى بحبِّك أو أرى ... حريقاً بأنفاسي غريقا بأدمعي؟
ألا عطفةٌ تشفى بها نفسُ عاشقٍ ... جعلتِ الرَّدى منه بمرأى ومسمعِ
صليني بعض الوصل حتى تبيَّني ... حقيقةَ حالي ثم ما شئت فاصنعي

وقال أيضاً:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ... سرٌّ إذا ذاعتِ الأسرارُ لم يذعِ
يا بائعاً حظَّه مني ولو بذلت ... لي الحياةُ بحظِّي منه لم أبعِ
يكفيكَ أنَّك لو حملت قلبي ما ... لا تستطيعُ قلوبُ النَّاس يستطعِ
ته أحتمل واستطل أصبر وعزَّ أهن ... وولِّ أُقبل وقل أسمع ومر أطعِ

وقال أيضاً:

أيوحشني الزَّمان وأنت أُنسي؟ ... ويظلمُ لي النَّهار وأنت شمسي؟
وأغرس في محبَّتك الأماني ... وأجني الموت من ثمراتِ غرسي؟
لقد جازيتِ غدراً عن وفائي ... وبعتِ مودتي ظلماً ببخسِ
ولو أنَّ الزَّمان أطاعَ حكمي ... فديتكِ من مكارهِهِ بنفسي

وقال أيضاً:

يا قمراً مطلعهُ المغربِ ... قد ضاق بي في حبُّك المذهبُ
أعتبُ في هجركَ لي ظالماً ... ويغلب الشَّوق فأستعتبُ
ألزمتني الذنبَ الذي جئته ... صدقت! فاصفح أيها المذنبُ!
وإنَّ من أعجب ما مرَّ بي ... أنَّ عذابي فيك مستعذبُ

وقال أيضاً:

يا نازحاً وضميرُ القلبِ يهواه ... أنستكَ دنياكَ عبداً أنتَ دنياهُ
ألهتكَ عنه فكاهاتٌ تلذُّ بها ... فليس تجري ببالٍ منك ذكراهُ
علَّ اللَّيالي تبقني إلى أملٍ ... الدَّهرُ يعلم والأيَّام معناهُ

وقال أيضاً:

سأحبُّ أعدائي لأنَّك منهم ... يا من يصحُّ بمقلتيه ويسقمُ
أصبحت تسخطني وأمنحُك الرِّضا ... محضاً وتظلمُني فلا أتظلَّمُ
يا من تألَّفَ ليلهُ ونهارهُ ... فالحسنُ بينهما مضيءٌ مظلمُ
قد كان في شكوى الصَّبابةِ راحةٌ ... لو أنَّني أشكو إلى من يرحمُ

وقال المراكشي أيضا: ومما قال: – رحمه الله – يتشوق ابنة المهدي المذكورة ومعاهد بقرطبة وضمنها بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن!

قصيدة أولها:

هل تذكرون غريباً عاد شجن ... من ذكركم وجفا أجفانه الوسن؟

يخفي لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السر والعلن

يا ويلتاه! أيبقى في جوانحه ... فؤاده وهو بالأطلال مرتهن؟

وأرق العين والظلماء عاكفة ... ورقاء قد شفها أو شفني حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها ... وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن

يا هل أجالس أقواماً أحبهم ... كنا وكانوا على عهد فقد ضغنوا؟

أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ... إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عادكم عيد فرب فتى ... بالشوق قد عاده من ذكركم حزن

وأفردته الليالي من أحبته ... فبات ينشدها مما جنى الزمن

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

ولعلها القصيدة الطويلة التي أوردها من قبل وذكر أنه اختصرها و لم يذكرها بكاملها.

المطلب الثالث: غرض الوصف

وبات ليلة بإحدى جنات إشبيلية فقال:

وليلٍ أدمْنا فيه شُربَ مُدامةٍ ... إلى أنْ بدَا لِلصُّبح في اللَّيل تأشيرُ

وجاءَت نُجومُ اللَّيل تَضربُ في الدُّجى فولّت نُجومُ اللّيلِ واللّيلُ مَقْهور

فَجُزْنَا من اللَّذات أطْيبَ طِيبها ... ولم يَعْرُنَا هَمٌ ولا عاق تَكْدير

خَلا أنّه لو طالَ دامتْ مَسرَّتي ... ولكنْ ليالي الدّهِر فيهنَّ تقصير

المطلب الرابع: غرض الرثاء

ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك أن أبا الوليد بن زيدون رثا أبا بكر محمد ابن قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن ذكوان، بقوله:

أعجب بحال السرو كيف تحال ... ولدولة العلياء كيف تدال

لا تفسحن للنفس في شأو المنى ... إن اغترارك بالمنى لضلال

يا قبره العطر الثرى لا يبعدن ... حلو من الفتيان فيك حلال

ما أنت إلا الجفن أصبح طيه ... نصل عليه من الشباب صقال

مَن للعلوم فقد هوى العلم الذي ... وسمت به أنواعها الأغفال

مَن للقضاء يعزّ في أثنائه ... إيضاح مظلمة لها إشكال

وُدّعتَ عن عمر عمرتَ قصيرَه ... بمكارم أعمارهن طوال.

™ M®_HASSOUNI ABD ELGHANI ALEDRISSI

www.bahr-ansab.com

للمراسلة

info@bahr-ansab.com

الجزائر – ادرار – بودة – بني لوا

الجوال

0663451178

للإتصال من الخارج

00213663451178